(SUJHUS) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (ISSN: 2959-5436)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الرابع للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة من 7-8 نيسان 2025 /القسم الرابع, الصفحات 166-181

مظاهر نقد الشِّعر لدى القاضي ابن أَبي عَقَامَة اليَمَنِي

أ.د.نزار شكور شاكر [1]*

[1]كلية اللغات، جامعة السليمانية، العراق

الملخص

يهدف البحث الحالي إلى تسليط الضَّوء بالبحث المنهجي على أبرز مظاهر نقد الشّعر في كتاب (جواهِر الأخبار ومُلحُ الأشعار) للقاضي ابن أبي عَقَامَة اليمني (ت نحو 480ه) وصولاً إلى تحديد مكانة المؤلِّف في السَّاحة النقديَّة ، ولهذا الغرض البحثي تمَّ رصد ثلاثة مظاهر حيويَّة رئيسة في مجال نقد الشَّعر العربي القديم وردت في مؤلَّفه المذكور ، وهي : بيان الغَلَط ، والأخْذ ، والموازنات ، وقد تمَّت معالجتها عبر إجراءات البحث في ضوء المنهاج الوصفي التحليلي المرتبط أساساً بالظواهر النقديَّة ، وخرج البحث في النهاية بجملة نتائج علميَّة كشفت بشكل عام عن السِّمة النقديَّة النظريَّة والتطبيقيَّة فضلاً عن المرجعيَّة التي كانت حاضرة في شخصيَّة القاضي ابن أبي عَقَامَة اليَمَني ذات الارتباط بالثقافة النقديَّة على حسب ما أتاحت ذلك طبيعة تأليف الكتاب ومفرداته البنائيَّة والأسلوبيَّة .

الكلمات المفتاحيَّة : المظهر، النَّقد ، الشِّعر ، ابن أبي عَقَامَة ، اليمني

Aspects of Poetry Criticism in the Works of Judge Ibn Abi Aqama Al-Yemeni

Prof. Dr. Nizar Shukor Shaker [1*]

[1] *College of Languages, University of Sulaymaniyah , Iraq*

Abstract:

This study aims to systematically examine the key aspects of poetry criticism in the book Jawāhir al-Akhbār wa Mulah al-Ashʿār by Judge Ibn Abi Aqama Al-Yemeni (d. around 480 AH) to determine his position within the field of literary criticism. To achieve this, the research identifies three primary critical approaches to classical Arabic poetry found in his work: error identification, textual borrowing (intertextuality), and comparative analysis. These aspects are analyzed using a descriptive-analytical methodology focused on critical phenomena.

The study ultimately presents a set of scholarly findings that reveal both the theoretical and applied dimensions of Ibn Abi Aqama's critical approach. Furthermore, it highlights the intellectual influences shaping his perspective, demonstrating his engagement with the traditions of Arabic literary criticism. His methodology is reflected in the structure, composition, and stylistic features of his book.

Keywords: Criticism, Poetry, Ibn Abi Aqama

المقدمة:

يبقى الموروث النقدي العربي القديم عنصراً حافلاً بالمُعطيات الغنَّاء التي تظهر في سياق مؤلفات ضمَّت بين جوانبها هذا النقد الذي أثرى مسيرة الأدب ولاسيَّما الشِّعر العربي ، يهدف البحث الحالي إلى قراءة أبرز مظاهر نقد الشِّعر لدى القاضي ابن أبي عَقَامة اليَمَني (ت نحو 480) في كتابه الماتع الموسوم : (جواهر الأخبار ومُلَحُ الأشعار) ، وبالتالي

* **Email address: Nzar.shaker@univsul.edu.iq**

التَّعرف على سِمة البعد النَّقدي لدى مؤلِّف الكتاب الذي كان كتابه كما يبدو أُفقاً نقدياً زاخراً بالتَّوجهات والآراء والمعالجات النقديَّة ذات الارتباط بطبيعة المُؤلَّف بدرجة كبيرة ؛ ولاسيَّما بعد إتباع المُؤلِّف أسلوباً في التأليف يقوم على البعد توظيف السَّردي – النقدي الحافل بمظاهر نقديَّة عديدة ضمَّتها من قبلُ المصادر العربيَّة المختصة بهذا النوع من التأليف المنهجي ، ولا شكَّ في أنَّ العمل الأكاديمي ضمن هذه المساحة المعرفيَّة المتشعبة الجوانب يعدُّإشكالاً بحثياً بحدٍ ذاته في سياقه الذي ظهر في إحدى مدونَّات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري التي حرص الباحث من جانبه على تجاوزها بعد أن توجَّه صوب آراء المؤلِّف نفسه في الظواهر النقديَّة المرصودة ومدى ارتباطها بمحور نقد الشِّعر العربي وكيف كان يسعى بحرص بالغ إلى توجيهها بآلياته الأسلوبيَّة وطريقته في العرض المعرفي لها كما سيبين ذلك لاحقاً ، ولهذا الغرض البحثي تمَّ رصد ثلاثة مظاهر حيويَّة في مجال نقد الشِّعر في الكتاب وهي : بيان الغَلَط ، والأخذ ، والموازنات ، وتمَّ اعتماد المنهاج الوصفي – التحليلي في هذا العمل ، هذا وقد أدرجنا في خاتمة البحث أبرز النتائج البحثيَّة التي تمَّ التَّوصل إليها ، مع بيان ثبت المصادر والمراجع التي تمَّت الإفادة منها في إعداد هذا البحث . ***والله من وراء القَصْد وهو يهدي السَّبيل .***

الدراسة

سنقوم بعرض أبرز مظاهر نقد الشَّعر في الكتاب المذكور في أعلاه ، ولاسيَّما بعد أن شكَّل كلّ مظهر نقدي ركيزة من الركائز البحثيَّة التي يمكن في ضوئها الحصول على النتائج التي تسهم بمجملها في تكوين صورة البعد النقدي - ولاسيَّما التطبيقي منها- ومزاياه لدى القاضي ابن أبي عَقَامَة وهو يتصدَّى لهذه المظاهر بالرَّصد النقدي وأساليبه ، وعلى النحو الآتي :

المبحث الأول : بيان الغلط

يأتي تحديد هذا المظهر النقدي من عدَّة أوجه ، منها ما جاء في سياق قراءة الخبر الآتي وما فيه من بيان الغلط فيما زعموا من أقوال ، ومناقشته على نحو موضوعي معلَّل من لدن القاضي ، ثمَّ المجيءلاحقاً بالشَّاهد الشِّعري المناسب في هذا المجال الذي شهد كما يبدو تقليب المعنى / القصد على وجهين : الذَّم تارة والمدح تارة أخرى ، فضلاً عما جاء من زاوية النَّظر إلى القول الشعري قياساً على ما جرى لدى العرب في بابه ، وبالإستناد إلى قول الثقات الحاضر في بعض التفاسير أيضاً الأمر الذي يجعل البحث القائم في هذا الحقل كما يبدو قائماً على أُسس معرفيَّة من نوعها ، حيث جاء((بالإسناد : أن سالم بن دارة أحد بني عبد الله بن غطفان هَجا حُصيْب بن السجيف أحد بني فزارة فقال :

حُصَيْب بن السجيف أخُـــو البَلايَا عَــلى الجـــــــــلساء أثقل مِـــــــن جِراءِ

تضـــج الأرض مـــــنه حين يمشي وتلـــــــعنُه مَـــــــصـــــــــابيحُ السَّـــــــــماءِ

فلما بلغ ذلك حصيبًا حلف ليضربنه حتَّى يسلح ، فضربه أسواطاً فسلح فخلاه فذهب ابن دارة ليغسل ما به وحان من حصيب ركوبٌ فمرَّ به وهو يغسل ثيابه ، فقال : يا ابن دارة كيف ترى ؟ قال ابن دارة : إنَّ هذا ليغسله الماء والذي قلت لا يغسله شيءٌ . فأمر به فضُرب عنقه ، ثم قال :

مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابنُ دارةَ أجْمَعَا

فذهب هذا المصراع مثلاً. قال القاضي : كلاهما غَلِطٌ فيما زعم ؛ أمَّا قول ابن دارة : إنَّ هذا ليغسله الماء ، فالماء إنَّما يغسل القذر لا العار اللازم له بسلحه من أسواطٍ ، بل لا يزال ذكرُ ذلك باقياً ، وأمَّا قول الحُصيب : محا السَّيف ما قال ابن دارة ، فكيف يمحوه وقد سار في البلاد وانتشر ذكره في كل واد وها هو إلى اليوم مأثور مذكور، ولهذا قال بعض العرب وهو دعبل :

فإنْ أهلِكْ فقدْ أبقيتُ بَعدِي قَصـــــائد تُعْجِبُ المُتمَثِلِينا

وسمعت من بعض شيوخي أن العرب إنَّما قُدِّمَت في الحكم على العجم ؛ لأنَّها قيدت حكمها بالمنطق والمنطق باق أبداً ، والعجم قيدت حكمها بالصنعة ، والصنعة فانية . قال القاضي : أمَّا قول ابن دارة : (تضِجُّ الأرض منه حين يمشي) فإن العرب تجعل صفة الرجل بكونه ثقيلاً على الأرض ذمًّا تارة ومدحًا أخرى ، فمن الذَّم قول ابن دارة هذا ، وقد أكثر الشعراء من ذلك ، فمنه قول بعضهم :

تحمل منك الأرض أثقال ما يحـــــــمله الحـــــوت من الأرضِ

وأمَّا المدح فمنه قول الشمرذل بن شريك يرثي أخاه أُبَيَّاً :

وحَلَّتْ به أثقالَها الأرضُ وانتهى لمثواه منها وهو عـــــف شمائله

وكانت العرب تقول : الفارس الشُّجاع ثقل على الأرض ، فإذا قتل أو مات قيل : قد سقط عنها بذلك ثِقْلٌ .

وقد زعم قومٌ أن معنى بيت الشمرذل أن الأرض حَلَّت بأخيه موتاها الذين هم ثقلٌ فيها ، يريدُ الحِلية التي هي الزينة ، والتفسير الذي قدمناه قول جماعة يُوثق بهم)) . [2]

ومن صور هذا البيان ما جاء أيضاً في سياق تسليط الضَّوء على البعد الموضوعي في القول الشِّعري من وجهة نظر شرعيَّة لا تجوِّز فهم تطبيق بعض القِيم من نحو الكرم والجود في المجتمع حينما يدخل ذلك الإجراء في المحظور والمنهي عنه ، وما تبعه من تبنِّي بعض الشُّعراء هذا المفهوم في أشعارهم بوصفه نهجاً يؤخذ به في كلِّ حالٍ على حسب تصوّرهم ، حيث ((قال القاضي : قد كان جماعة من الكرام في الجاهلية يستدينون عند نفاد النقود في إحياء سُبل الجود ، وفي ذلك يقول المقنع الكندي :

يُعاتبُني فِـــــي الدَّينِ قومِي وإنَّما دُيُوني فِـــــــــي أشياءَ تُكسبُهُم حَمْدَا

أسدُّ بِه مَـــــا قَـــد أخَـــلُّوا وضـيَّعُوا ثُغُور حُقوقٍ مَـــــــــا أطاقُوا لَهَا سدَّا

وفِي جفنةٍ مَـــــا يُغْلَقُ البابُ دُونَهَا مُـــــــــكلَّلَـــــةً لَـــحمَاً مُـــــدفقةً ثَـــــــرْدا

وإذا رجعنا إلى موجب الشَّرع كان الجود بجميع المال وجلب الفاقة للنفس والعيال من التبذير الذي نهى الله عنه ، لاسيَّما من يحمل نفسه على السؤال عند عدم المال ، وقد كره النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك من قوم ، وقبله من آخرين ، وكان معنى كراهيته علمه أنهم لا يصبرون على الفقر ، ومعنى قَبوله علمه منهم حسن الصبر(...) ، فأمَّا الاستدانة في الجود فلا أرى لها وجهاً في الشرع يُرتضى مع قول النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم :" نَفْسُ المؤمنِ مُرتهنةٌ بدَيْنِه حَتَّى يُقْضَى" ، وامتناعه من الصلاة على الميت إذا كان عليه دينٌ فالدَّين إذاً في اللازم للفتى مشين ، فكيف يرجى به فيما لا يلزم دين ؟)) . [3]

وضمن هذه الفقرة البحثيَّة ـ النقديَّة نقرأ ما ورد من إجراء تحقيقي لهذا الأمر، وذلك في ضوء اعتماد أسلوب رصد الغلط في القول الشَّعري نصياً ، مع تحديد الصَّواب في إطار بيان تداعيات هذه الظاهرة الاجتماعية التي كانت لها أصداء رحبة في الشِّعر العربي كما هو معلوم ، وذلك ضمن اللجوء إلى اعتماد شواهد الصَّواب الشعريَّة في هذا الموضوع وعرضها أمام المعنى والمعنى المقارب له في جوهر القول ، إذ ((قال القاضي : إن شُحًّا غلب على أبي الأسود مع صحبته لأمير المؤمنين علي عليه السَّلام ، ونظره زهده وسماعه تزهيده ، لشُحٌّ هالعٌ ، وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : "شرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالِعٌ وجُبنٌ خَالعٌ" . قال القاضي : من جمع ما بين هاتين فالعدم به أولى ، وهو من الذمّ أدنى ، وفيه يقول الشاعر:

فتًى إن يرضَ لا ينفَعكَ يَوماً وإن يـــغضـــــبْ فإنَّك لا تُبـــالِي

وأمَّا جدال أبي الأسود عن البخل فإن حسن البخل عند البخلاء حسنٌ كحسن السَّخاء عند الأسخياء ، ولذلك قال بعض الشُعراء البخلاء :

أصونُ مَالي بجهدي كي أعزَّ به لا بارك الله بعد المَال في الحَسبِ

وقال آخر – وهو بمعنى كلام أبي الأسود في ذلك - :

من لم يصن نفسه ويكرمها بحفظ ما في يديه من ورقهْ

وأنفق المَال مُسْرفاً خـــــــرقاً غدا بطوق الهوان في عنقهْ

قال القاضي : هذا غلطٌ من البخلاء شديد ، ولا سؤدد لأحد حتّى يعاضده جود (...) ، وقال آخر والصَّواب مع قوله حيث يقول كلام المجيب عليه : (البيتان) ، والصَّواب مع القائل (البيتان) ، وقال آخر :

لما رأتني أوتي المَـــــــــــــــال طالبه ولا أبالـــــي تلاداً كـــــان أو طَـــرفَا

عدَّت سماحي تبذيراً ، ولست أرى إعـــطائي المَـــــال تبـــــذيراً ولاسَرفَا

ويكفي عن هذا قول القائل :

أنتَ للمَالِ إذا أمسكتَهُ فإذا أنفقتَهُ فالمالُ لكْ)) .[4]

ومن هذا المحور(الموضوعي) الغالب في هذا الجانب من الرصد الذي أفاد أيضاً توافر الحجَّة الشرعيَّة التي تبرر النَّقد الموضوعي للقول الشعري الصادر عن حقل الجانب العاطفي وبعده الذي من المفترض أن يُقنن بموجب الشَّرع من وجهة نظر (قيميَّة) وأن لا يترك الأمر هكذا على عواهنه ؛ ولذلك نجد هنا حضوراً يذكر لأسلوب النفي في هذا المجال والتعليل لهذا النَّفي الصريح في الموضوع ذي البعد الأخلاقي الذي أخذ يستقوي في ميدان نقد الشَّعر بوصفه ردَّة فعل من نوعها في وقتها في القرن الخامس الهجري [5] ، نقرأ : ((قال القاضي : قد ذهب إلى طريقة خالد هذا جماعة من الشعراء في القناعة من الحبيب بالنظر والحديث دون ما عدا ذلك ، ومنه قول نِفْطَويْه حيث يقول :

كَم قد خَلَوتُ بمن أهوى فيمنـــعُني مِنـــــــه الحَياءُ وخَـــــوفُ اللهِ والحذرُ

وكَم قد ظفرت بمن أهوى فيقنعني مِنـــــــه الفُكاهَةُ والتَّـــــحديثُ والنَّظَرُ

أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم وليس لـــي فـــــــي حـــرام منهم وطرُ

كذلك الـــــــــــحُبُّ لا إتيانَ فاحشةٍ لا خيرَ فـــــــي لذَّةٍ مـــن بعدها سَقَرُ

قال القاضي : ليس هذا عفافاً ، لأنَّ المحادثة والنَّظر إلى من لا سبيل إليه حَوب ، والعفاف اجتناب الحَوْب مع أنَّ النَّظرَ داعيةٌ إلى الفاحشة ، فالصبر قبله ممكنٌ وبعد متعذرٌ ، ولهذا قال النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم : "لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلاّ كان ثالثهُما الشَّيطانُ")) . [6]

ومن أشكال هذا الإلتفات الموضوعيَّة إلى بعض القيم الاجتماعية وأثارها في الشِّعر القديم ، نقرأ وجهة نظر القاضي في موضوع الفخر القبلي ، وهو يحاول نقض ما جاء في نصوصه بناءً على تلمس بعض أصداء هذا المفهوم الجمعي في حقيقة الأمر، وذلك في ضوء التفسير الذي جاء به في هذا الشَّأن المعرفي ، ((قال الشاعر:

سيري أمام فإنَّا الأكثرون حصى والأكرمُـــون إذا مَا يُنْـــسبونَ أبَـــا

قَومٌ هُمُ الأنـــفُ والأذناب غيرُهُمُ ومَـــن يـُـسَوّي بأنف النَّـاقة الذَّنَبَا

قال القاضي : معنى البيتين الأخيرين أنه من بني أنف الناقة قبيلة فضيلة من فضائل قبائل بني تميم وطريق هذا وطريق الرجل الذي قبله في خبر معاوية في إعجابهما بقبيلتهما وتصورهما كونهما منها بسبب فضيلتهما طريق كثير من الناس ، شهدت بذلك أشعارهم ، وتواترت به أخبارهم ، والحق في غير ذلك ، وهو أن يرى الناقص نقصه عمن هو أزيد منه ، وخفَّته عمن هو أرجح منه ، وما من قبيلة وإن شرفت إلاَّ وقد رُميت بالثلب وفرقت ، وأنا ذاكر عقب هذا الحديث خبراً يشتمل على ذلك كلّه إن شاء الله)) . [7]

وقد نلمس إجراءً تطبيقياً من نوعه على مستوى المضمون المعلَّل في مجال رصد (عيوب الشِّعر) أيضاً في ضوء توافر الرواية الثانية للخبر من المصدر النقدي القديم المعتمد على نحو كبير في سياقات تأليف الكتب القديمة ، ودراسة ما صدر عنها من حكم جاء مُعَضَّداً من الناحية اللغويَّة - الدلاليَّة للقول الشعري التي بيَّنها القاضي حيث ((قال القاضي : قد رُوي من وجه آخر أنَّ حسَّان أنشد النَّابغة شعره الذي يقول فيه :

لَنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن بالضُّحَى وأسيَافُنـــــــــا يَقْطُـــرْنَ مِـنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ولَدْنَا بنِـــي العنقاءِ وابنَـيْ مُـــــــحَرِّقٍ فأكرمْ بِنا خَالاً وأكـــــــرِمْ بنَـــــا ابنَمَا

فقال له : أنت يا ابن أخي شاعر ، ولكنك قلَّلت جفناك ولم تكثرها ، وافتخرت بمن وَلدت ، ولم تفتخر بمن ولَدك . فعاب عليه موضعين من هذين البيتين ، وهو عيب صحيح ، ومعنى قوله : (قلَّلتَ جفانك) أن جفنات جمع القليل ، وجمع الكثير جفان ، والفخر بالكرم ينبغي أن يكون بالكثير لا بالقليل)) .[8]

وعلى هذا النَّهج من ما جاء من هذا المبحث عن طريق بيان(مناقضة) الشاعر أبياته بأبيات أخرى على مستوى الغرض الشعري الواحد ،[9] إذ جاء أنَّ ((أشجع بيت قالته العرب قول العبَّاس بن مَرْداس السلمي حيث يقول :

أكُرُّ عَلَى الكَتيبةِ لا أبالي أحَتْفِي كـــــانَ فِيها أمْ سِواهَا

قال القاضي : نقض العبَّاس بيته هذا بأبيات أخر سنذكرها في خبر آخر إن شاء الله تعالى)) .[10]

ومن محور نقدي آخر مرتبط بهذه الظاهرة النقديَّة نقرأ ما ورد في إطار التَّتبع لهذا الأثر النقدي من لدن القاضي ، مما قد يحيل من جانب إلى قضية الصِّدق والكذب في النقد العربي القديم ومخرجاتها في ضوء تبنِّي آراء النُّقاد القدامى فيها التي جاءت في هذا السِّياق [11] التي تُجيز البحث في تفاصيلها ضمن النصوص الواردة في هذا المجال ، جاء ((بالإسناد : أنَّ عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أي العرب أشجع في شعره ؟ فقال بعضهم : (...) ، فقال عبد الملك : أشجع من هؤلاء عمرو ابن الإطنابة حيث يقول :

وقَوْلِي كُلَّمَا جَـشَأَتْ وجاشَتْ مَكَانَك ، تُحْـمَدِي أو تَسْتَريـحِي

والعبَّاس بن مرداس السلمي حيث يقول :

وإنّي لَدَى الحَربِ العَوَانِ مُوَكَّلٌ بإقــدام نَفْـــــسٍ مَــا أريدُ بَقاءَهَا

أقاتل عَلَى الكَـــــــــــتيبةِ لا أبالي أحَتْفِي كَـــــانَ فِيهـــــا أمْ سِـواهَا

قال القاضي : قد كنَّا قدمنا فيما رتَّب الأصمعي أنَّ اشجع بيت قالته العرب هو قول العبَّاس بن مرداس :

أكُرُّ عَلَى الكَتيبةِ لا أبالي أحَتْفِي كـــــانَ فيـــها أمْ سِواهَا

ولم يكن العبَّاس أشجع العرب بل متأخرٌ عن كثيرٍ منهم ، وقد قدمنا له خبراً يدلّ على ذلك ، وفيه من التوقف أكثر مما نقمه عبد الملك بن مروان على ما قدمناه ، ولكن ذلك خفي على عبد الملك ، فأمَّا بيت ابن الإطنابة فهو من جملة أبيات هذه منها : (الأبيات ...) ، قال القاضي : ولم يكن ابن الإطنابة أشجع العرب في وقته بل دون ذلك كثير منهم ، وله قصة مع الحارث بن ظالم جَزَّ فيها ناصيته)) .[12]

وفي تحديد (المبالغة) في تضمين القول النثري في البيت الشِّعري فيما جاء من قول سيّدنا علي -كرَّم الله وجهه- لابنه الحسن ما قد يعدُّ أحد أوجه البحث في هذا الميدان الهادف بدرجة كبيرة إلى تحديد خروج القول الشعري عن المألوف في نطاقه ، وذلك باللجوء إلى أحياناً إلى أسلوب الموازنة في هذا الجانب الذي سنأتي عليه تباعاً الذي يرتبط بقضيَّة الأخذ النقديَّة من جانب آخر كما هو وارد : ((يا بني إيّاك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإيّاك ومصاحبة الكذَّاب فإنه يقرب إليك البعيد ويبعد عليك القريب ، وإيّاك ومصاحبة الفاجر فإنه يبيعك بالتَّافه الحقير ، وإيّاك ومصاحبة البخيل فإنَّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه . وقد بالغ في ذلك القائل ، فقال :

ولأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلاً خيرٌ لَهُ مِن أنْ يكونَ لهُ صَديقٌ أحْمَقُ)) .[13]

وفي سياق متَّصل بهذا المحور قد يأتي البحث الدقيق في هذا المطلب النقدي الأساس حيناً بعد عملية تحديد القصد الشِّعري المناسب القائم على مبدأ المبالغة في سياق المعنى التابع للغرض الشِّعري فضلاً عن نهج (المؤّلف– الناقد) أحياناً سبيل إعمال تأويل المعنى في القول الشعري بدلاً عن الانسياق المجرَّد مع المذهب الذي يُخطِّأ المعنى من غير أن يجد سبيلاً مناسباً لتفسيره في إطار الغرض الشِّعري القائم وسياق النقد البلاغي الذي أدركه النُّقاد الأوائل وأثبتوه في معاني الشُّعراء عبر محطَّات نقدية دالة على هذا القصد المعرفي [14] ، وفي ذلك ((قال القاضي : وإنَّما ينبغي أن يستشار من جمع أمرين : عقلاً راجحاً ، وقلباً ناصحاً (...) ، وأمَّا قول الشَّاعر :

مُستحكم الرأي مُستغن بوحدته عن الرِّجال بريب الدَّهر مضطلع

فلم يقصد بذلك ذمَّ المشورة ، وإنَّما قصد المبالغة في المدح بكمال التَّدبير وتجريب الأمور . وأمَّا قول الآخر : " إنَّما العَاجِز مَنْ لا يَسْتَبِدُ " فمعناه عندي أنَّ العاجز لا يستبد بالإقدام عن ظهير ينضاف إليه دون الإقدام على رأي لم يظاهره جازمٌ عليه ، وإذا وجدنا له معنًى يُرضَى به أولى من جعله خطأً محضاً)) . [15]

ولعلَّ ما جاء في سياق هذا القول من لدن القاضي يلتقي مع تلك الرؤيا النقديَّة الحديثة للنَّص التي ترى أنَّ ((في أي نص جانبان : موضوعي يشير إلى اللغة ، وهو المشترك الذي يجعل عملية الفهم ممكنة وجانب ذاتي يشير إلى فكرة المؤلف ويتجلى في استخدامه الخاص للغة ، وهذان الجانبان يشيران إلى تجربة المؤلف التي يسعى القارئ إلى إعادة بنائها

بغية فهم المؤلف أو فهم تجربته . والقارئ يمكن له أن يبدأ من أي الجانبين شاء ، مادام كل منهما يؤدي بـه إلـى فهم الآخـر، وكلا الجانبين – في رأي شليرماخر- صالحان كنقطة بداية لفهم النص)) . [16]

وأحياناً أخرى قد يـأتي الـرأي المُستنبط من الرَّصـد الـدقيق لتلك التَّوجهـات الشـعريَّة لـدى الشـاعر وتكرارهـا فـي ضوء غرضه الشِّعري الأثير من نحو الزهد على نحو تراكمي ، لتسليط الضَّوء بعض الشَّيء على هذا المحور من جانـب انطباعي – استقرائي يفيد فضلاً عن الرَّصد بيان تصويب ما ذهب إليه صاحب القول الشِّعري نفسه من باب التواضع بوصفها وجهة نظر ثبُتَت بالاطلاع الذاتي المدعم بالمصادر ، حيث ((قال القاضي : وسمعنا بالإسناد عن الحسن بن صـالح أنه قال : كنت بين يدي المأمون إذ دخل عليه أبو العتاهية ، فقال له المأمون : أنشِدني أحسن شيء قلتـه فـي الزهد ، فقـال : ماعسيت أن أقول بعد مـا سبقتني جاريـة سليمان بـن عبد الملك ؟ وأنشد البيتين اللذين ذكرناهمـا * ، قـال القاضـي : وهذا تواضع من أبي العتاهية ، وله في الزهد مُلَحٌ كثيرةٌ وهي أحسن من بيتَي الجاريـة ، منهـا قولـه : (...الأبيـات) ، ولـه مـن هذا الجنس ما يَكْثُرُ تعدادُه ، ويُمَلُّ ترداده)) . [17]

ومن مجمل الجهود التي تأتي من هذا الحقل الذي شهد اتساعاً يذكر فـي المؤلَّف ، بالإمكـان بيـان الـذهاب شيئاً مـا كذلك إلى تحديد الإجادة في القول الشِّعري على نحو انطباعي - ذوقي مجرَّد من التَّعليل النقدي الـدقيق ، وذلك بعد توظيف مصطلحي : (الحُسن والقُبح) ضمن هذا الإجراء الذي شهد الإتيان بمقاربات القول الشِّعري حينـاً لهـذا القَصـد التوضـيحي ، فضلاً عن التَّطرق الموجز إلى تفسير المعنى الشِّعري الذي يقع منـه الصَّـريح المحض المرغوب فيـه ، وخلافه المرغوب عنه ، في الأغراض الشعريَّة على حسب الأخذ المألوف بأسلوب الإطالة تارة أو الاختصار تارة أخرى في سياق الغرض من لدن الشُّعراء ، المدعم بالخبر والشَّاهد الشِّعري اللازم ، قال الشَّاعر :

((لزمت "نعم حتَّى كأنـــــــك لم تكن سمعت من الأشياء شيئاً ســــــوى نعم

وأنكرت "لا" حتـــى كأنك لـــم تكن سمعت بـ"لا" في سالف الدهر والأمم

قال القاضي : قد أكثر النَّاس في نعم ولا ، وجاء بقريب من هذا المعنى أبو نواس حيث يقول :

أتَرَى لا حَراماٍ وتَرَى ها حَلالَا

وأحسن ما قيل في ذم "لا" قول أبي عبادة البحتري :

قبحـــــــــــت "لا" فإنها صورت صورة الجلم

تقطع الوصـل والوفا ثم تأتي عـــلى الكـرم

وأقبح ما يكون قول "لا" بعد "نعم" ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ولا تـقل نَعَـــــمْ يوماً فتتبعها بِلاَ ، ولَوْ ذَهَبَت بالمَالِ والوَلَدِ

وقال آخر :

حَسَنٌ قَولُك :"لا" قبل"نعم" وقَبـــيحٌ قَـولُ "لا" بـــعدَ "نَعَمْ"

إنَّ "لا"بَعْدَ "نَعَمْ"فاحِـــــــشَة فَبها فابْدَأ إذا خـــِفْتَ النَّـــدَمْ

قال القاضي : ليس يريد أنَّ قول "لا" قبل "نعم" أحسن منهـا ، وإنَّمـا مُقدمها قد يعذر ومؤخرهـا لا يعذر ، ومـن ذلك قول الآخر :

وإنْ قُلْتَ في شَيءٍ "نـــــــــــعم" فأتمَّهُ فإن "نـــعم" فرضٌ عَلى الحُرِّ واجبُ

وإلاّ فقل "لا" تـــــــــــسترح وتُرِح بها لئـــلا يَقُـــول النَّـــاس إنَّـــكَ كـــــاذِبُ

قال القاضي : وأمَّا اقتصار هذا المادح على بيتين ؛ فإنَّ العرب تفعل ذلك كثيراً وتطيل أيضاً كثيراً ، فإذا أطالت جاءت بالصَّريح والرَّغوة ، وإذا اختصرت جاءت بالصَّريح المحض ، ومن ذلك ما يروى أنَّ شاعراً وقف على باب يَزيد بن حاتم ورجله في الرِّكاب ، فاستأذنه في الإنشاد ، وقال : هما بيتان فأذن له ، فأنشده يقول -ولله درُّه- :

يَا واحـــــــــد العَرَب الذي أمْسَـــــى وليسَ لهُ نَظِير

لو كانَ مثلك في الورى مَاكانَ فـــــــي الدُّنيا فَقير

فأمر له بخمسمائة دينار)) . [18]

وقد يكون محور المفارقة في سياق القول الشِّعري ذاته الذي شهد موقفاً ما يتطلَّب مراجعة على أساس بيان المغزى من النص العنصر الثابت بإزاء متغيرات أدوات عرضه والتأويلات الحاضرة المتجددة باستمرار في هذا الفضاء الذي يشهد جملة من الثوابت النوعيَّة في حقيقة الأمر سواء أكان على مستوى التأويل أم على مستوى المعنى الشِّعري ، ذلك ((أنَّ اشتغال أفعال التأويل يتساند فيها ، في كلّ الأحوال ماهو نصَّي وما هو سياقي ، ويظل الاختلاف في المفاهيم والأدوات والإستراتيجيات التأويلية حاضراً وفارضاً نفسه باستمرار ، أمَّا الثوابت فتظل هي نفسها)) ، [19] نقرأ في هذا الشَّأن : ((قال القاضي : باقل وسحبان ضدان ؛ فسحبان يضرب به المثل في الفصاحة والبيان ، وهو رجل من وائل باهلة ، وكان خطيباً مِسْلاقاً وباقل يضرب به المثل في العِيّ والبلادة ، وهو رجل من قيس بن ثعلبة ، وكان حديثه أنَّه اشترى عنزاً من الظباء بأحد عشر درهماً فقيل له بكم اشتريت العنز ؟ فأومأ بأصبع يديه وبلسانه فمضى الظبي لشأنه . قال القاضي : وأراد أن ذلك منه على طريق المزح والضحك والتعجب ؛ لأنَّه روي أنَّ الناس لمَّا عيَّروه وضربوا به المثل أنشأ يقول :

يلومـــون في عِـــيه باقلاً كأن الحَمـــــــاقة لم تُخْـلَقِ

فلا تكثر العذل في عيه فللعي أجمـــــل بالأمـوقِ

خروج اللسان ومد البنان أحـب إلينا مـن المنـــطقِ

ومن نظم مثل هذه الأبيات ، ويقيم فيها مثل هذه الحجة فإنما أراد بسكوته الذي قدمناه المداعبة بلا شك)) .[20]

وفضلاً عن أمثلة المستوى الموضوعي المار ذكرها آنفاً ، وما جاء فيها من مباحث كانت قد أفرزت نمطاً بحثياً يستند على الموضوع الشِّعري ونقده على نحو واضح أفادت جوانب معرفيَّة عديدة ، نقرأ أيضاً ما ورد في إطار بيان الغلط الفني الجائز في بابه ولاسيَّما على مستوى تنظيم الإيقاع في الشِّعر، مع بيان تعلُّق الشَّاهد في المعنى بمصدره القولي النثري الذي يحيل إلى قضيَّة الأخذ النقديَّة ويرتبط بها في هذه الدراسة نقرأ ما جاء في قول ((الحارث المخزومي :

أتيتك إذْ عَينـــــــي عَليـــهَا غِشَاوةٌ فلمَّا انـــجلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِـــي ألومُهَا

عَطفْتُ عَليكَ النفسَ حَـــتَّى كأنَّمَا بكفَّـــــيْك بؤسها مَـــــــــعاً ونعيـــمُهَا

ومَابي إذ أقصَيتني مـــــن ضَراعةٍ ولا افتقرتْ نفسِي إلى مَـــن يُهـــينُهَا

صـــل الحبل يحمل مـــا سِواهُ فإنما يُـعَفّي عَلـــــــى غثِّ الأمـــورِ سمينهَا

قال القاضي : أمَّا إتيان الحارث بالنون مع الميم في أبياته الأولى فذلك جائز، غير أنه عيبٌ من عيوب الشِّعر يسمى الإكفاء ، وقد أوضحته على حقيقته مع نظرائه في كتابي الملقَّب بـ "نقد الشِّعر" ، وأمَّا بيتاه الأخيران فقد أكثر الشُّعراء في هذا المعنى ، منه قول عروة حيث يقول :

إني علمت وما الإسراف من خلُقي أن الذي هـــو رزقي ســـوف يأتيني

أسعـَـــــى لَه فيعنينـــــــــــــي تطلبه ولـــو قـــعدت أتانـــــــي لا يُـــــــعَنيني

وهذا كُلّه مأخوذ من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه في الجنة : (...الأبيات الشعريَّة))) .[21]

المبحث الثاني : الأخذ

شغلت قضيَّة الأخذ حيِّزاً واسعاً على الساحة النقدية ، إذ قلَّما وجدنا الكتب النقدية القديمة وهي لا تتناول هذا الموضوع الحيوي ، من أمثلة تناول هذه القضيَّة الجوهريَّة التي أخذت أبعاداً في نقد الشِّعر العربي ومباحثه لدى النُّقاد القدامى كما هو معلوم ما جاء من اقتران هذا الرَّصد ببيان الاستحسان النقدي- الذوقي الصَّادر عن طريق الرواة / الجمعي (المنقول) لبيت شعري ورد ضمن أبيات قالها الشَّاعر ، مع بيان جهة الأخذ الشعريَّة ، على نحو مألوف وشائع في مجال تسليط الضَّوء على هذه القضيَّة النقديَّة الأصيلة التي تعلَّقت على نحو كبير بالأحكام الذوقيَّة على الرّغم مما فيها من صعوبة وشدَّة تذكر [22] ، كما ورد في قول((نُصَيب :

أقولُ لركبٍ صَادرينَ لقـــــــيتهم قِفَا ذاتِ أوشَالٍ ومولاكَ لاغبُ

قفُوا خبِّروني عن سليمان إنَّني لمَعروفـــــــهِ من آل وَدَّانَ طالبُ

فعَاجوا فأثنَـــوا بالذي أنتَ أهلُهُ ولو سَكتوا أثنتْ عَليكَ الحَقائبُ

قال القاضي : قالت الرواة : بيت نُصيب الأخير هو أحسن أبياته ، مأخوذ من قول حاجب بن زُرارة حيث يقول :

أغرَّكم أنِّـــي بأحـــــــــــسن شيمتـــي رفيقٌ وأنِّـــــــــــي بالفَواحـــــش أخرَقُ

ومثلي إذا لم يُجز أحسن صنعه تـــــكلم نعـــــــــــــــماه بِفيه فَيَنْطِقُ)) . [23]

ومن هذا المحور ما جاء بعد أن أخذ المعنى المتداول بين الشُّعراء ومنهم القاضي في أحد أبياته مزيَّة (الحَسَنِ) الانطباعيَّة في ضوء هذه القضيَّة الجوهريَّة ، وكأنَّ هذه المزيَّة الانطباعية (المعنى الحَسن) هي السَّبب الرئيس وراء هذا التَّداول للمعنى بين الشعراء وأثره في ضبط مستوى التَّلقي المطلوب حصوله جمالياً لدى القارئ بعد أن تشكَّل من عدَّة عناصر قارَّة في إطار توافر((سلطة النص النموذج الذي يفترض وجود قارئ مدجج بترسانة من المفاهيم والآليات والمواقف ، التي غالباً ما تنساق وراء إملاءات المنهج وصرامته)) [24] ، ومن ذلك ما جاء في قول ((دعبل بن علي :

((لم آتِ مُطَلِّباً إلاّ بمـــطلبٍ وهمَّة بلغت بـــي غاية السَبَبِ

قال القاضي : قوله " لم آتِ مُطَلِّباً إلاّ بمـــطلبٍ " معنى حسنٌ ، وقد تداوله الشُّعراء)) [25]

ويبدو أنَّ للقاضي رأياً ذاتياً في إيراد الأنموذج الشِّعري غير المُبتذل بالتداول بين الشُّعراء الذي تمَّ رصده أيضاً ضمن هذا الإطار [26] ، في إشارة إلى الاهتمام الضمني بقضيَّة السَّبق والتجديد أيضاً في سياق تناول الغرض الشَّعري ، أو الأخذ به بين الشَّعراء على وفق مبدأ القراءة الذاتية الواعية التي لاينوب عنها النقد والناقد فـ ((ليس للنقد أن يكون بديلاً عن القراءة ، كما أن ليس للناقد أن يصادر على الآخرين أو حتى ينوب عنهم حتى بدعوى معرفته أو قدرته على إصدار الأحكام)) [27] ، نقرأ ما جاء في هذا المجال : ((قال القاضي : قد أكثر الشعراء في كراهية النِّساء للشَّيب إلاّ أنَّا نورد من ذلك ما لم يخلقه التَّداول ومنه قول بعضهم :

كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذنْباً عِنْدَ غَانِيَةٍ وبِالشَّبَابِ شَـــفِيعاً أيُّهَا الرَّجُلُ)) .[28]

يأتي هذا المظهر الذوقي فيما أفاد من جانبه تأصيل القول الذي بات ينماز في هذا الأفق بوصفه أخذ عن المصدر المأثور ذي المزيَّة النوعيَّة في سياقه من نحو ماجاء في خبر هاشم بن عبد مناف وكلماته التي باتت معانيها متداولة فيما نُظم ونُثر((الخبر (...) قال القاضي : كلماتُ هاشمٍ هذه كلماتُ حكمةٍ وقد تداول الناس معناها في كلامهم فنظموه ونثروه ، وذلك أكثر من أن يحصى ، وكلمة منها هي نصفُ بيتٍ صحيح ، وهي " المرء منسوب إلى فعله" أدرج بعضهم هذا الصنف فقال :

كل امرئ يُصْغَى إلـى شكله والمَـــرءُ مَـــنسوبٌ إلـــى فعله

ومحضر المرء دليل على ما شـــئت أن يخبر عـن أصله)) .[29]

وضمن مباحث هذه القضيَّة النقديَّة الأثيرة في كتب النقد القديم أفاد القاضي أسلوبياً تحديد نوعٍ من الأخذ بعينه ، وهو (الأخذ بتمامه) بين الشَّاعرين ، بوصفه شكلاً من أشكال الأخذ ، ويأتي هذا الإجراء التنظيري غير المكتمل بعد أن شخَّص مكانه من غير تحديد المزيَّة لشاعر على آخر في المعنى ، مُكتفياً بما ورد لديه الداخل في هذا الإطار البحثي على نحو عام ، وذلك فيما جاء من قول ((أبي نواس :

مضى لي شهر مذ حبستُ كأنني فديتُك قَـدْ أذنبتُ مـا لَـــــــــيْسَ يُغْفَرُ

فإنْ كُنتُ لـــمْ أُذنِبْ فـــفيمَ حَبستَني وإنْ كان لـــي ذَنْبٌ فَـــــــــعفوكَ أكبرُ

قال القاضي : أخذ البحتري بيت أبي نواس الثَّاني بكامله ، فقال في قصيدة له في المتوكل :

فإلا يكُن ذَنبٌ فعدلُكَ واسِعٌ وإنْ كانَ لِي ذنبٌ فَعفوكَ أوسَعُ)) .[30]

وفضلاً عن الأخذ من حقل الشِّعر العربي كما ورد في الأمثلة في أعلاه ، تضمَّن البحث في هذا المحور الأخذ من الحديث النبوي الشَّريف المسموع المردف من جانب آخر بتفسيره الوارد على نحو سماعي أيضاً ، وما تلاه من نظم فيه لبعض الشُّعراء المتأخرين على سبيل التَّمثيل فحسب ، من غير أن يصدر أيُّ تعليق نقدي يذكر حول الموضوع ، كما جاء في ((قول عمر ابن أبي ربيعة المخزومي :

ولقد قالَـــــــت لأترابٍ لَـهَا وتَعَـــرَّتْ ذاتَ يَـــــوم تَـــــــبْتَرِدْ:

أكَـــــــمَا يَنْعَتُنـي تُـــبْصِرُنِي عمركـــــــن الله أمْ لا يقتـــــــصدْ

فتضـــــــاحكن وقد قـلن لها: حـسنٌ في كُـلِّ عَيْنٍ مَـــنْ تَوَدْ

قال القاضي : بيت ابن أبي ربيعة الأخير مأخوذ من الخبر الذي سمعناه من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً ، وهو قوله : "حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ" ، وأحسن ما سمعناه من تفسيره أنَّ معناه : يُعْمِيك عن النَّظر إلى مساوئه ، ويُصمّك عن استماع العذل فيه ، وقد أخذ ذلك بعض المتأخرين فقال :

وَعيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلةٌ ولكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَسَاوِيَا)) .[31]

ومما جاء ضمن هذه القضيَّة على مستوى الإلتفات إلى أخذ المعنى الشِّعري من لدن بعض الرواة من القول المأثور في موضوع العلم والجهل ، نقرأ ما ((يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم اللهُ وجهه أنه قال : "كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح إذا نُسب إليه ، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرَّأ منه من هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه" . وأخذ معنى ذلك بعض الرُّواة فقال :

كَفى شرفاً بالعـــــلم دعواه جاهل ويفرح إن أمسَى إلى العِلم ينسبُ

ويَكفي خُـــــمولاً بالجَـــــهالة أنني أُرَاع متى أنسَب إليـــــــها وأغضَبُ)) .[32]

كما جاء الأخذ في ضوء مفهوم الرِّواية للمعنى شعراً التي وردت لدى بعض المُحدثين عبر التَّتَبُّع لما جاء في هذا السِّياق من أقوال الشعراء ومعانيهم اللاحقة لما ورد عن المصدر القولي السَّابق ، إذ ((يروى عن أمير المؤمنين عليه السَّلام أنَّه قال : " قيمة كل امرئ ما يُحْسِنُ" فرواه بعض المُحدثين بالشِّعر فقال :

قَالَ عليٌّ بن أَبِـــــي طالِبٍ وهُوَ اللَّبِـــــيبُ الفَطِنُ المُتْقِنُ:

كُلُّ امرئٍ قِـــــــــيمَتُهُ عِنْدَنا وعِـنْدَ أهـلِ العِـلْمِ ما يُحْسِنُ

وأنشد لابن طباطبا العلوي في هذا المعنى :

فيا لائمي دعني أغـــــالي بقيمتي فقيمة كـــــل الناس ما يحسنونهُ)) .[33]

ومن سُبل بيان هذا الأمر أيضاً كما يبدو فضلاً عن تحديد المصدر القولي الأحادي بعينه ، تحديد مصدر نظم المعنى لدى الشَّاعر في ضوء القول الذي يأتي في الحقيقة على نحو جمعي منسوباً إلى جهة مكانيَّة بوصفها مصدراً للمعنى الذي كان حاضراً في النص الشِّعري ، مع تأشير غياب التَّعليل النقدي والتعليق في هذا الجانب ، حيث ((قال القاضي : روينا بالإسناد أن أهل منبج لم يكن فيهما فقيرٌ في زمان الحكم فسُئِلوا عن ذلك ، فقالوا : نزل الحكم بين أظهرنا فعلمنا بالجود ، فعاد مُوسرنا على مُعسرنا فاستغنينا كلُّنا قال القاضي : نظم هذا المعنى أبو نواس بقوله :

سَـــنَّ للنَاسِ النَّـــــدَى فندوا فَكأنَّ البُخْلَ فيهم لَم يَكُنِ)) .[34]

المبحث الثالث : الموازنات

تعدُّ الموازنات إحدى الإجراءات النقديَّة الشائعة في نقد الشِّعر العربي ، ولعلَّنا نلحظ قلَّة الموازنات الشعريَّة قياساً إلى ما سواها لدى القاضي الذي عمد إلى إجراء موازنة بين بعض أهل الحضر العارفين بفنون الجمال القبلي الشائع ، والأعراب في غرض الوصف ذات مرَّة ، كانت النقطة المشتركة بينهما هي النَّباهة في الصِّفة المليحة للعنصر النسوي الموصوف ، بغض النَّظر عن نوع الانتماء الاجتماعي ، فضلاً عن العلم بمواطن الحُسن ، كما جاء في ((قول الأصمعي :

كنانيةُ الأطراف ، سَعديـــةُ الحشا هلاليـــــــةُ العَـــــينين ، طَائِيةُ الفَمِ

لها حكمُ لقمان ، وصورةُ يوسف ونـــغـــمة داود ، وعـــفة مريـــــــمِ

قال القاضي : صفة الأصمعي هذه صفة الحضر بين العارفين بفنون الحسن وتفرقها بين القبائل ، وقد يصف الأعراب مع جهلهم بما قدمناه فيُمْلِحُون ، فرُوي أنَّ أعرابياً نظر إلى امرأة بارعة الجمال فقال شعراً :

أوَحشِيَّةَ العَيْنَينِ أيْنَ لَكِ الأهلُ أباالحَزْنِ حَـلُّوا أَمْ مَحِلُّهُمُ السَّهْلُ

(...الأبيات))) .[35]

والغالب أنَّه تقع في هذه المحور على نحو عام بعض الإجراءات النقديَّة البسيطة نسبياً والمعلَّلة أحياناً في ضوء عملية الموازنة الأدبية بين بعض النصوص النثريَّة بعد أن أجازت قضيَّة الأخذ النقديَّة فضلاً عن اعتماد تقانة المقاربة هذا الإجراء مع بعض النصوص ، ومنها ماورد عبر التَّعقيب على قول القدامى في هذا البعد ، وإيضاح نوع الفن البلاغي - الجمالي في القول ، واستحسانه لدى العرب فكانت له أصداء في أدبهم ، كما جاء في سياق ((الخبر... ، قال ابن دريد : أخذ هذا المعنى رجل كان أسيراً في بني تميم ونظمه شعراً ، كتب به إلى قومه فقال :

خُلُّوا عَـــــن النَّاقة الحَـــــمراءِ أرحُلَكم والبازِلَ الأصهَبَ المَعْقولَ فاصطَنِعوا

إنَّ الذِّئابَ قَـــــد اخضَرَّت بَـــــراثِنُها والنَّـــــاسُ كـــــلُّهـــــــم بَـــــكْرٌ إذا شَـــــبِعوا

يريدُ : الناس كلّهم إذا أخصبوا أعداء لكم كبكر. قال القاضي : العرب تسمِّي هذا النوع لحن الكلام ، وهو المراد بقول الله تعالى : ((ولتعرفنهم في لحن القول)) ، وحقيقة اللحن عندهم أن تكنّي عن الشَّيء الذي تريده بكناية يفهم منها ما تريده من غير تصريح ، ومن العرب من يستحسن ذلك ، قال بعض بني فزارة :

وحَـــديثُ ألَـــذُّهُ هـــــو مـــــــــا يَنْعَتُه النَّاعِـــــتُونَ يُوزنُ وَزْنَا

مَنطقٌ صَائب ويَلْحَنُ أحياناً وخيرُ الكَلام مَـــــا كـانَ لَحْنَا

قال القاضي : وقريب من هذا ، وهو أدق منه رسالة مهلهل إلى ابنتيه (...) ، قال القاضي : وإنَّما جعلنا هذا أدق من الكلام الأول ؛ لأنَّ الأول استخراجُ معنًى من كلام مسموع ، وهذا استخراج من كلام لم يسمع بناءً على كلام يقتضيه ما قبله))[36].

فضلاً عن وقوع الموازنة الأدبيَّة بين النثر والشِّعر سواء أكانت فيما ورد عن الذات ، أو جاء بعد موقف كلامي استدعى قولاً شعرياً إزاءه كانت له تبعات تذكر يرتبط بنمط من الاستحسان المبرَّر معرفيَّاً ، أو الداخل في هذا المجال بعد طلب الزيادة فيه كما جاء من المصدر، حيناً على مستوى النثر، وحيناً آخر على مستوى الشعر على نحو ما هو دارج في نطاق الموازنات الأدبيَّة ، إذ جاء ((بالإسناد : أنَّ أبا العتاهية وفد على بعض الملوك فامتدحه بأشعار، فلم يلتفت إليه ولم ينل شيئاً بين يديه ، فبعث إليه رقعاً فيه : " أمَّا بعد ... فإني قصدت إليك فِراراً من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددت بُعْداً مما تقربت منه ، وقرباً مما تباعدت عنه وقد قسمت اللائمة بيني وبينك نصفين ؛ لأني أخطأت في سؤالك وأخطأت أنت في منعي ، وقد أُمِرْتُ بترك سؤال أهل البخل فسألتهم ، وأُمِرْتَ أنت أن تبرّ أهل الرَّعية فمنعتهم ، وقد قلتُ في ذلك شعراً :

فررتُ من الفَقْرِ الذي هو حَاضري إلـــى عُرْفِ مَـــــحظورِ النَّوالِ مَنُوعِ

فأعقبني الحِرمانَ غِـــــبَّ مَطامعي كذلك مَـــــنْ يَسعـــــــــى بِـغير قنوعِ

وغير بديعٍ مَنْـــــــع ذي البُخل مَاله كما جـــــود أهـل الجود غـير بديعِ

وليس يُضيع العـــــــرف كل مشرّف كمـــا لا يُضيع البخل كـــل وضيع

قال القاضي : كلمات أبي العتاهية هذه أحسن من شعره ، ولقد عدل فيما قال ، وخاب من منعه النَّوال وكيف يزهد واحد عاقل في ابتياع ما يبقى بما هو زائل ، ولا ريبَ في إفناء الوفرِ ، وإبقاء الشكر ، وقد أحسن نظم ذلك رجلٌ دخل على بعض الملوك في ثيابٍ رثَّة فتكلم بكلام مُفْلِقٍ ، فقال له الملكُ : لو كان حسن كسوتك كحسن كلامك ! فقال : أصلح الله الأمير، أمَّا الكلام فأقدر عليه ، وأمَّا الكسوة فأنت لها أهلٌ . وأنشأ يقول :

بَهجَاتُ الثيابِ يُخْلِقُهَا الدَّهـــــ رُ وحُـــسْنُ الثناءِ غَضٌّ جَديدُ

فاكسُنِي مَا يَبيدُ أصْلحَكَ الله فإنِّـــــي أكـــسُوكَ مَـــا لا يَـبيدُ

فكساه وأعطاه ، وقال : زدني من هذا المعنى . فأنشد يقول : (... البيتان))) .[37]

أمَّا عن أُسس قيام هذه الموازنات فقد تكون الألفاظ الموجزة الفصيحة والبليغة في بعض الأحيان محور قيام الموازنة الأدبية – النقدية الرئيس ، ولاسيَّما تلك التي تكون فيها المزيَّة للإيجاز المطلوب في نص الأديب النثري ، بالقياس إلى ماورد في سياق الغرض الشِّعري المقارب لها في قول الشاعر ضمن الغرض الواحد إذ ((قال القاضي : والألفاظ الموجزة الفصيحة أكثر من أن تحصى ، إلاّ أنّي استحسن ماروي عن بعض الأدباء أنه دخل على بعض الأمراء فاستقبله بعض غلمانه ، فقال : إنَّهُ ولد للأمير ولدٌ ومات له ولدٌ فهنّه وعزه ، فسار كما هو حتَّى سلَّم على الأمير ، ثم قال : أيُّها الأمير ، سرَّك الله فيما ساءك ، لا ساء فيما سرَّك ، وألهمك الشكر على ما أعطاك ، والصبر فيما به ابتلاك . فهذا قد أوجز وأبلغ ، وقد تعاطى أبو نواس مثل ذلك في شعره ، إلاَّ أنه لم يوجز فقال :

تـــعزَّ أبـَـــا العَبَّاس عن خيـر هالكٍ بأفْـــضَل حـــيٍّ كانَ أو هُوَ كـــــــائنُ

حوادثُ أيَّامٍ تـَــــــدورُ صُـــــــــرُوفُهَا لَهُـــــــنَّ مَسَاوٍ مَـــرَّةً ومَـــــــــــحَاسِنُ

وَفي الحَيِّ بالمَيتِ الذي ضمن الثرى فَلا أنـــــــتَ مَغبونٌ ولا المَوتَ غَابنُ)).[38]

وفي إفادة قضية الصِدق الواقعي والكذب الفنّي[39] هذا الجانب من وجه ، نقرأ ما أورده القاضي على نحو يحمل المفارقة الظريفة التي لا تؤشر التطابق المطلوب بين القول الشِّعري المستحسن من جهة ، وواقع الحال من الناحية الاجتماعية من جهة ثانية ، حيث جاء ((بالإسناد : أن الحجَّاج بن يوسف أتي برجل قد وقع في أيدي العَسَس ، فقال الحجاجُ : ماحملك على أن خرجت في مثل هذا الوقت ؟ قال : شرفي وكرم آبائي . فاستوى الحجَّاجُ جالساً ، وقال : من أنت ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابنُ من عَاشَ وهو مؤتمنٌ يَرْحَـــمُـــهُ اللهُ أيُّـــــمَا رَجُـــــل

لَـــــهُ رقابُ المُلُوكِ خَاضِـــــعَةٌ مـن كـل حافٍ مشَـــى ومنتعل

يأخُـــــذُ مِنْ مالِهِمْ ومـنْ دَمِهِمْ لَم يمـس مِـنْ ثَأْرِهِمْ عَلَى وَجَل

فقال له الحجَّاج : إنك لشريف فمن أنت ؟ فقال : أنا ابن رزق الحجام . فضحك الحجاجُ ، وقال : إن لم تكن شريفاً فأنت ظريف . قال القاضي : أمَّا كلامه فكذب وهُزءٌ بنفسه ، وأمَّا شعره فصدقٌ ، وهو من لطيف الكلام ، وقد قدَّمنا مثله فيما مضى ، ومن هذا النوع أنَّ العُريان أتي بشاب سكران ذات يومٍ ، فقال : من أنت ؟ فأنشأ يقول شعراً :

أنا الذي لا يـــنزل الدهـــــــر قدره فإن نزلـــت يومـــاً فسوف تعود

ترى النَّاس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنـــــهم قـــيام حـــــــوله وقـــــعود

فخلَّى سبيله ، وسأل عنه فإذا هو ابن رجل يبيع الباقلاء. وقريب منه ما روي أنَّ رجلاً أتي به وقد جنى جناية فأمر بضربه فلما جُرِّدَ تمثَّل بقول الشاعر:

فقلت لمذحج قوموا فشدوا مـــــــــــآزركم فقـد بـَرِحَ الخَفاءُ

رَأيتُ الحَربَ يَجنِيهَا رِجالٌ وَيَـــصلَى حـَـــــــــــرَّهَا قَومٌ براءُ

فقيل : خلّوا سبيله ، وسئل عنه فإذا هو رجل جزَّار)) .[40]

الخاتمة

بعد ما مرَّ معنا في سياق البحث وإجراءاته المتَّبعة فيما يتعلَّق بالعيِّنة البحثيَّة فضلاً عن استقراء ماورد مرتبطاً بهذا الجانب البحثي في الكتاب القديم على نحو شامل ، تبيَّن الآتي :

1-تبدو الهُويَّة النقديَّة للذات حاضرة ضمن هذا المشهد المألوف في الكتب التي ضمَّت شذرات من النقد العربي القديم ، الذي تشكَّل على بعض الجوانب النظرية والتطبيقيَّة والمرجعيَّة (عنصر السَّرد الإخباري) التي كان لها أثر جمعي في تكوين البعد النقدي في الكتاب الذي أسهم على نحو عام في إضفاء تلك السِّمة النقديَّة من نوعها على جانب من إجراءات التأليف وسياقاته التي كانت قد فسحت المجال أيضاً لهذا الأثر النقدي بالظهور المتزامن مع سياق التأليف في مجاله وفي أوانه .

2- إنَّ المعالجات النقديَّة الواردة في الكتاب على حسب المظاهر الثلاثة كانت مُقَنَّنة على حسب طبيعة تأليف الكتاب بدرجة كبيرة ، ولكنَّها معالجات تبدو ناضجة ؛ إذ ارتبطت بالجوانب الموضوعيَّة والإدراك لطبيعة النَّص الأدبي وبعض وظائفه ، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بمفاهيم نقد الشِّعر ومصطلحاته وإجراءاته على نحو يؤشِّر توافر حجمٍ من الثقافة النقديَّة التي انمازت بها شخصيَّة (القاضي) مؤلِّف الكتاب في حيِّز نقد الشِّعر العربي في القرن الخامس الهجري .

3- يفسح البحث الحالي المجال لقيام أبحاث ودراسات نقدية وبلاغية أخرى ، إذ تتوافر مادة معرفيَّة غنيَّة في الكتاب المحقق حديثاً تحتاج أن يطلع عليها الباحثون والدارسون ، وأن يفيدوا من جهود مؤلِّفه في هذا المجال .

الهوامش

1 اليمني ، القاضي مؤتمن الدين الحسن بن محمد بن أبي عَقَامَة المتوفى نحو 480ه ، تحقيق : نهى عبد الرزاق الحفناوي الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 2024 ،1: 121-124 .

2 المصدر نفسه ،2: 227- 228 .

3 المصدر نفسه ،1: 178 – 181 .

4 ينظر: عباس ، د. إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب / نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983 ، 371 .

5 اليمني،2: 210-211 .

6 المصدر نفسه 2: 266-267 .

7 المصدر نفسه ،2: 388-389 .

8 ينظر: المناقضة ، مطلوب ، د. أحمد ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / عربي-عربي ، مكتبة لبنان ناشرون 2007 ، ص 649 .

9 اليمني ،1: 69 .

10 ينظر : طه ، د. هند حسين ، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1981 ، 198 ومابعدها لطفاً .
11 اليمني ،2: 363-364 .

12 المصدر نفسه ،1: 191.

13 ينظر : سلوم ، د. داود ، النقد العربي بين الإستقراء والتأليف ، الناشر : مكتبة الأندلس ، بغداد ، ط2 ، 1970 ، ص121 وما بعدها .

14 اليمني ،2: 233 – 234 .

15 أبو زيد ، نصر حامد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، الناشر : المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – بيروت ، ط1 2014 ، 21 .

16 اليمني ،1: 125- 127 . * البيتان : أنتَ نِعْمَ المِتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أنْ لا بَقَاءَ للأنسَانِ

أنتَ خِلْوٌ مِنَ العُيُوبِ وممَّا يَكْرَهُ النَّاسُ غَيْرَ أنَّكَ فَانِي

17 المصدر نفسه ،2: 331- 333.
18 بازي ، محمد ، تقابلات النص وبلاغة الخطاب / نحو تأويل تقابلي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان ، ط1 2010 .157
19 اليمني ،2: 399 .
20 المصدر نفسه ،2: 246-248 .
21 ينظر: عياد ، شكري محمد ، دائرة الإبداع ، مقدمة في أصول النقد ، دار الياس العصرية ، القاهرة ، (د.ت) ، 42 .
22 اليمني ،1: 91-92 .

23 شميعة ، د. مصطفى ، القراءة التأويلية للنص الشّعري القديم بين أفق التعارض وأفق الاندماج ، الناشر : عالم الكتب ، إربد ط1 ، 2013 ، 52 .
24 اليمني ،2: 212- 214 .

25 ينظر : المصدر نفسه ،1: 191 .
26 العشيري ، د. محمود ، شعرية القصيدة / في المبادئ المحايثة للنص الشعري (دراسة في سقط الزند) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2017 ،34 .
27 اليمني ،2: 198 .
28 المصدر نفسه ،1: 139 .
29 المصدر نفسه ،2: 377-378 .
30 المصدر نفسه ،1: 84 .
31 المصدر نفسه ،1: 164.

32 المصدر نفسه ،1: 165.
33 المصدر نفسه ،1: 175-176 .
34 المصدر نفسه ،2: 215-216 .
35 المصدر نفسه ،1: 114-116 .
36 المصدر نفسه ،2: 344-345 .

37 المصدر نفسه ،2: 218-219 .

38 طه ، 191 .

39 اليمني ،2: 355 .

المصادر والمراجع

1- أبو زيد ، نصر حامد ، إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، الناشر : المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء بيروت ، ط1 ، 2014 .

2- بازي ، محمد ، تقابلات النص وبلاغة الخطاب / نحو تأويل تقابلي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان ط1 2010 .

3- سلوم ، د. داود ، النقد العربي بين الإستقراء والتأليف ، الناشر : مكتبة الأندلس ، بغداد ، ط2 ، 1970.

4- شميعة ، د. مصطفى ، القراءة التأويلية للنص الشعري القديم بين أفق التعارض وأفق الاندماج ، الناشر : عالم الكتب ، إربد ، ط1 ، 2013 .

5- طه ، د. هند حسين ، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار الرشيد للنشر بغداد ، 1981 .

6- عباس ، د. إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب / نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983 .

7- العشيري ، د. محمود ، شعرية القصيدة / في المبادئ المحايثة للنص الشعري (دراسة في سقط الزند) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2017 .

8- عياد ، شكري محمد ، دائرة الإبداع ، مقدمة في أصول النقد ، دار الياس العصرية ، القاهرة ، (د.ت) .

9- مطلوب ، د. أحمد ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها / عربي-عربي ، مكتبة لبنان ناشرون 2007 .

10-اليمني ، القاضي مؤتمن الدين الحسن بن محمد بن أبي عَقَامَة ، المتوفى نحو 480ه ، تحقيق : نهى عبد الرزاق الحفناوي ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 2024 .